حرب أكتوبر فى ميزان التاريخ

وبهت الذى كفر . !

.. ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ سورة الفرقان الآية (٢٧).

.. اندلعت حرب أكتوبر فى العاشر من رمضان عام ١٣٩٣ هجرية الموافق السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣م الساعة الثانية وأربع دقائق ظهرا كما أسلفنا القول.

.. كانت أخت "يوشع" مازالت تتوسط كبد السماء ترسل أشعتها على صفحة مياه قناة السويس، وكذلك على جبال ورمال سيناء، وجنود جيش مصر الميامين يعبرون القناة من الشط الغربى لها إلى الشط الشرقى فى أمواج متتابعة يشقون عباب اليم بسواعدهم وقواربهم عبر الجسور، وبقلب جسور وقد رفعوا علم مصر على الضفة الشرقية للقناة بعد أن سبقتهم الضربة الجوية القاتلة التى أصابت إسرائيل فى مكمنها، ودك الحصن.. الذى كانوا يتباهون به ويفخرون، ويزعمون أنه أقوى خط دفاع فى العالم.

.. وإذ بلغ هدف السادات مداه وحقق مبتغاه أغلق مدافعه وفتح باب السلام.

.. ولسنا بصدد تأريخ هذه الحرب، ولا الحديث عنها إلا بقدر ما يقتضيه السياق.

وللاحترام نسوق هذه القصة القصيرة فى سياق حديثنا عن هذه الحرب المجيدة.

.. يقص علينا أحد أبطال حرب أكتوبر العظام وهو الصديق اللواء أركان حرب "محمد الفنجرى" نتفا من ذكرياته فيقول:

.. إنه فى خضم هذه الحرب المجيدة وبالتحديد بعد وقف إطلاق النار فى ٢٢ أكتوبر عام ١٩٧٣م وبعد موافقة الجانب الإسرائيلى على ذلك نقض الإسرائيليون ما اتفقوا عليه وهم الذين يتسمون دائما بنقض العهود فاستمروا فى إطلاق النار وضرب وحدات الجيش المصرى بالطائرات والدبابات حيث كنا محاصرين ضمن قوات الجيش الثالث الميدانى.

.. وأذكر – بالتحديد – أننى كنت أقف ضمن طاقم دبابة القيادة فى موقعها ناحية الغرب من مدخل ممر الجدى، وكان قد نما إلى علم العدو الإسرائيلى من خلال استطلاع طائراته المهاجمة أن مربض هذه الدبابة هو مركز القيادة المصرية فركزوا القذف على تلك الدبابة بثلاث قنابل.. كنت أشاهد هذا الموت بعينى حيث كنت واقفا مع طاقمها وهم الرامى والمدفعجى وسائق الدبابة أشاهد القنابل وهى تتساقط علينا فتوجهت بسرعة البرق إلى ملجأ كنت قد أقمته يسمى (قفص القرود).. هكذا كان اسمه، وكان معى آنذاك صديق عمرى المقاتل "جلال العبادى".

.. أسفر هذا القذف عن تدمير الملجأ وتفكك حديد هذا القفص وانهال التراب والرمال فوقى فخرجت بأعجوبة شديدة من ركام هذا القفص.. وبعد خروجى كانت المفاجئة أن الجنود الثلاثة قد تفحمت جثثهم التى تحولت إلى أشلاء بدائرة قطرها خمسون مترا.. لمنا أشلاءهم

ووارياهم الثرى بملابسهم العسكرية وفى صبيحة اليوم التالى حيث كان عيد الفطر توجهنا حيث ووريت أجسادهم لقراءة الفاتحة على أرواحهم.. كان المدهش والغريب أننى ألفيت ثلاثة عصافير واقفة على قبور هؤلاء وهى تغرد وكأنها تستمطر الدعاء على أرواحهم، وفى الوقت نفسه كأنها كانت تستقبلنا بهذا التغريد. .. كيف أتت هاتيك العصافير إلى هذا لمكان؟.. وما الذى جاء بها إلى هذا المكان أليست هذه آية من آيات الله؟!.

.. لا يفوتنا أن نستخرج من بطون التاريخ المعارك الحربية التى كان لها فى التاريخ تأريخ.

.. قيل إن حرب المائة عامٍ التى شكلت صراعا طويلا بين فرنسا وإنجلترا، وقد دامت ١١٦ سنةً مِنْ ١٣٣٧م إلى ١٤٥٣م أصابت فرنسا باليأس والقنوط.

.. وقيل إن حرب الثلاثين عاما والتى نشبت صراعات دامية مزقت أوربا بين عامى ١٦١٨ و١٦٤٨ م،وقعت معاركها بداية وبشكل عام فى أراضى أوروبا الوسطى (خاصة أراضى ألمانيا الحالية) العائدة إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة،ولكن اشتركت فيها تباعا معظم القوى الأوربية الموجودة فى ذاك العصر فيما عدا إنكلترا وروسيا. فى الجزء الثانى من فترة الحرب امتدت المعارك إلى فرنسا والأراضى المنخفضة وشمال إيطاليا وكاتالونيا. خلال سنواتها الثلاثين تغيرت تدريجيا طبيعة ودوافع الحرب : فقد اندلعت الحرب فى البداية كصراع دينى

بين الكاثوليك والبروتستانت وانتهت كصراع سياسى من أجل السيطرة على الدول الأخرى بين فرنسا والنمسا، بل ويعد السبب الرئيسى فى نظر البعض،ففرنسا الكاثوليكية تحت حكم الكردينال "ريشيليو" فى ذلك الوقت ساندت الجانب البروتستانتى فى الحرب لإضعاف منافسيهم آل هابسبورغ لتعزيز موقف فرنسا كقوة أوربية بارزة،فزاد هذا من حدة التناحر بينهما،ما أدى لاحقا إلى حرب مباشرة بين فرنسا وإسبانيا.

.. سجل التاريخ أن ثمة معارك فاصلة دارت رحاها على أراضى العالم برمته بيد أن ثمة معارك اعتبرها المؤرخون أهم معارك فى التاريخ وهى :

.. أولاها : معركة " أكتيوم " (٣١ قبل الميلاد) : المعركة البحرية الشهيرة التى هزم فيها أوكتافيوس قوات كل من مارك أنطونيو وكليوباترا.

.. فى ساعتين فقط كان أنطونيو وكليوباترا قد فَقَدَا ثُلث الأسطول الذى يُقدّر بمائتى سفينة،وبمجرّد أن أيقن جنودهما أن الهزيمة واقعة لا محال تفرّقوا.

.. بعد الهزيمة أمام الإمبراطور الرومانى انتحر أنطونيو وكليوباترا،وسقط البحر المتوسط كله تحت السيطرة الرومانية.

- معركة "ستالينجراد" (١٩٤٢م - ١٩٤٣م): لعلّ هذه المعركة كانت أحد الأسباب الرئيسية التى ساهمت فى كبح جماح هتلر، وكانت بداية لهزيمته فى الحرب العالمية الثانية. استمرّت المعركة بين السوفييت والألمان للسيطرة على المدينة التى تحمل

اسم الرئيس ستالين فيما بين يوليو ١٩٤٢م وفبراير ١٩٤٣م، وبنهايتها كان أكثر من ١,٥ مليون إنسان قد قُتِلوا أو جُرحِوا أو أُسروا، وكان الجيش الألمانى قد تمّ تصفيته بالكامل، وتمّ أسر ٩١ ألف جندى منهم.

وكان السوفييت قد استماتوا للدفاع عن المدينة؛ فهى رمز سياسى مهم، وبالطبع لم يكُن ستالين ليغفر لهم إذا سقطت المدينة التى تحمل اسمه.

– معركة "جزيرة ميدواى" (١٩٤٢م): كانت خطة الأدميرال اليابانى ياماموتو أن يحتلّ جزيرة ميدواي، تلك الجزيرة المرجانية الصغيرة التى تقع على بُعد ٤٠٠ ميل غرب هاواي، ثمّ يستخدمها كنقطة انطلاق للهجوم على الجزر الأكثر أهمية.

.. لكنّ المفاجأة التى واجهت الأدميرال؛ هى قوة من حاملات طائرات أمريكية تحت قيادة الأدميرال تشيستر نيميتز، والذى استبسل هو وجنوده للدفاع عن الجزيرة، فى معركة كان يعتقد اليابانيون أنها سهلة، وانتهت المعركة بفقدان اليابانيين لحاملات الطائرات الأربعة التى جاءوا بها مع كل الطائرات عليها، إضافة إلى مصرع مجموعة من أمهر الطيارين اليابانيين، كما أنها أوقفت توسُّع اليابانيين فى المحيط الهادى.

– معركة "واترلوو" (١٨١٥م): فى المدينة البلجيكية الصغيرة التى تُعرف باسم "واترلوو"، اجتمعت الجيوش الإنجليزية والهولندية والبروسية (نسبة إلى دولة بروسيا التى كانت تقع محل ألمانيا حاليا) بقيادة دوق "ولينجتون"؛ لإيقاف "نابليون بونابرت" عند حدّه.

كانت هزيمة نابليون ساحقة فى المعركة،رغم أنه استبسل فيها ونزل إلى المعمعة على رأس جنوده وحرسه الخاص، وأراد أن يزج بنفسه وسط النيران؛ إلا إن ضبّاطه تمكّنوا من إثنائه عن هذا، وخسر نابليون ونُفِى إلى جزيرة سانت هيلانة، وانتهت الإمبراطورية النابليونية عند هذا الحد.

– معركة "جتيسبرج" (١٨٦٣م) : دارت رحى هذه المعركة بالقرب من بلدة جتيسبرج فى ولاية بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية،وقد سقط فيها أكبر عدد من المصابين فى الحرب الأهلية الأمريكية (٤٦ ألف بين قتيل وجريح من الجانبين).

وقد كانت نقطة تحوّل حاسمة فى الحرب،وأوقفت تقدُّم قوات الولايات الجنوبية لإحتلال الولايات الشمالية.

بالرغم من أن خسائر الولايات الشمالية فى المعركة كانت فادحة أيضا؛ فإن الشماليين كانوا قادرين على تعويض الخسارة،بينما لم يكن للجنوبيين نفس القدرة،وقد كانت هذه بداية الانتصار النهائى للولايات الشمالية.

– معركة "بلاط الشهداء" (٧٣٢): وقعت المعركة بين جيوش الدولة الأموية بقيادة عبد الرحمن الغافقى، وقوات الإفرنج بقيادة تشارلز مارتل قرب بلدة تور بفرنسا. بعد أن وطد الأمويّون أقدامهم فى إسبانيا أرادوا غزو فرنسا، وبعد الاستيلاء على عدة مدن؛ فاجأ تشارلز مارتل جيش الغافقى بقوات ضخمة لم ينتبه إلى قدوم طلائعها، واستمرّت المعركة لعدة أيام، وانتهت بانسحاب الأمويين.

أدّت المعركة إلى إنهاء الزحف الإسلامى على أوربا،وبداية سقوط الدولة الأموية فى الأندلس.

– معركة " فيينا " (١٦٨٣م) : دارت هذه المعركة بين العثمانيين بقيادة الصدر الأعظم قرة مصطفى،والقوات الألمانية البولندية النمساوية بقيادة ملك بولندا جون سوبريسكى. كان احتلال "فيينا" هدفا استراتيجيا للعثمانيين للسيطرة على خطوط التجارة والمواصلات فى القلب الأوربى، لكن القوات الأوربية تمكّنت من دحر الغزو،بعد خيانة أحد القواد العثمانيين، إضافة إلى الإرهاق والسأم الذى أصاب الجيش العثمانى من كثرة المعارك.

كانت الهزيمة فى هذه المعركة هى بداية النهاية للإمبراطورية العثمانية وتوسّعاتها فى أوربا.

– معركة "يورك تاون" (١٧٨١م) : بالرغم من القلة النسبية للقوات المشاركة فى هذه المعركة (٨٠٠٠ جندى أمريكى مدعومين بـ٨٠٠٠ جندى فرنسى ضد حوالى ٩٠٠٠ جندى بريطانى)؛ فإن نتائجها غيّرت تاريخ العالم.

كان من المفروض أن تهزم الإمبراطورية البريطانية التى لا تقهر هؤلاء المستوطنين الأمريكيين بقيادة جورج واشنطن وبكل سهولة،إلا أن حصولهم على التدريب الكافى إضافة إلى دعم الفرنسيين قد غيّر من الموقف،ووجد البريطانيون أنفسهم محاصرين فى بنسلفانيا بين الأمريكيين والفرنسيين،وهو ما دفعهم إلى الاستسلام بعد أسبوعين من القتال.

.. حصلت الأراضى الأمريكية على الاستقلال، وتمّ تأسيس دولة فى العالم الجديد سمّيت بالولايات المتحدة الأمريكية.

– معركة "سالاميس" (٤٨٠ قبل الميلاد): وهى معركة بحرية هائلة اندلعت بين الأسطول الإغريقى بقيادة ثيمستوكليس، والأسطول الفارسى بقيادة الملك زيكسيس، واشترك فيها أكثر من ألف سفينة.

استطاع الإغريق أن يدفعوا بالفرس إلى المضايق البحرية لسالاميس، ومن ثم استطاعوا أن يفقدوهم مزية كثرتهم العددية، وأذاقوهم هزيمة مُرّة.

انسحب "زيكسيس" إلى بلاده مرة أخرى تاركا اليونان لليونانيين. يعتقد بعض المؤرخين أن انتصار زيكسيس فى هذه المعركة كان ليدمر الحضارة الغربية كما نعرفها.

– معركة "عين جالوت" (١٢٦٠م): معركة عين جالوت وقد أدّت إلى إيقاف المدّ المغولى الكاسح فى العالم، والذى أسقط الخلافة العباسية عام ١٢٥٨، وقد كانت المعركة الأولى التى يهزم فيها المغول منذ عهد جنكيز خان.

.. كان المغول قد اكتسحوا بلاد فارس وما وراء النهرين والدولة العباسية، وكانوا فى طريقهم إلى مصر بقيادة هولاكو؛ فلاقاهم قطز وبيبرس فى عين جالوت.

.. ومن خلال خُطة حربية محكمة أطبق قطز وبيبرس على جيش المغول لينهزم المغول، ويتوقّف زحفهم على العالم، بينما تثبت أقدام دولة المماليك فى مصر.

– معركة "حصن المرقب" (١٢٨٥م): وكان هذا الحصن كحصن بارليف يقف مشرئبا بصلابته أمام أى غاز يريد أن يقتحمه وفى إبريل ١٢٨٥م عقد الملك " قلاوون " على اقتحامه وفى ١٧ إبريل من هذا العام المذكور آنفا وصول السلطان بجيش كبير أسفل الجبل الذى يقع عليه هذا الحصن الحصين ونصب المنجانيق على جانبى هذا التل وبدأ فى دك أسواره التى تمثل قلعة رهيبة كانت من المناعة حتى إنه تعذر السيطرة عليها خلال شهر كامل.

وبدأت القوات المصرية فى إحداث فتحة أسفل أحد الأبراج وهو البرج الذى كان معروفا ببرج الأمل ووضعوا الأخشاب سريعة الاشتعال فى هذه الفتحة وأضرموا فيها النيران فبدأ البرج فى التداعى وأثر هذا فى بقية استحكامات القلعة ولم يسع العدو سوى طلب الأمن والأمان فخرج فرسان الأسبتارية مستسلمين فى كامل عددهم العسكرية واقتحم " قلاوون " القلعة فى مايو من العام نفسه.

ويقول المؤرخ " أبو الفدا " الذى حضر الأحداث :

كان يوما مشهودا أخذ فيه السلطان الثأر من "الاسبتاريين" ومحيت آية الليل بآية النهار. ومما لا شك فيه أن ضياع هذا الحصن من أيد الصليبيين كان خسارة كبيرة فزع لها كل الصليبيين خاصة سكان مدينة عكا. وكان من بين ما فزع المغول أنفسهم أكثر مما أزعج الصليبيين.

.. كانت حرب أكتوبر حربا غير مسبوقة فى التاريخ تضاف إلى هاتيك المعارك الضارية السابق ذكرها بل وتسبقها فى الإعداد والتنسيق وهول الأحداث الحربية التى مرت بها.

.. وعبر أجناد مصر قناة السويس عبورا لم يكن له مثيل من قبل فى التاريخ.

.. استمرت المعركة بعد سقوط الشمس فى مياه القناة تدور عجلتها على أرض سيناء فى ظلام الليل البهيم لا يكسر من حدة ظلمته إلا نيران المدافع وفوهات الدبابات التى أمطرت جنود إسرائيل وابلا جعل الأرض من تحتهم ومن فوقهم جحيما وكأن الله قد أسقط عليهم كسفا من السماء.

.. كانت تحصينات خط بارليف أشبه بقلاع القرون الوسطى، وقد بنيت التحصينات التى كانت تبدو من الخارج كقلاع العهود الوسطى، بحيث كان كل حصن كدبابة عملاقة رهيبة الحجم قادرة على القتال بصورة مستقلة، كان المقاتلون فى داخله مزودين بقوة نيران كبيرة يمكن تشغيلها بواسطة حفنة من الرجال، ويؤمن لكل حصن اكتفاء ذاتى من الناحية القتالية بحيث يصمد فى وجه قوات " متفوقة " كان التقدير أنه بإمكان كل حصن من حصون بارليف الدفاع فى مواجهة كتيبة مدرعة كاملة للعدو لمدة أسبوع على الأقل .

.. واستكمالا لمناعة وقدرة هذا الخط قام اللواء " أريل شارون" عندما عين قائدا للجبهة الجنوبية " جبهة سيناء " بشق مئات الكيلو مترات من الطرق قرب القناة، وخاصة الطرق المواجهة لها بصورة عمودية، وقد أراد بذلك أن يقلل إلى الحد الأدنى من المقاطع التى تتحرك فيها قوات الجيش الإسرائيلى تحت رحمة النيران المصرية التى تنطلق من

الجهة الأخرى للقناة، كما قصد بالطرق التى شقت بمواجهة القناة تمكين المدرعات من التحرك السريع نحو المعاقل والقناة نفسها.

.. وقد أمر "شارون" أيضا بتجديد وتقوية المعاقل مرة أخرى برغم أنها صمدت قبل ذلك أثناء حرب الاستنزاف للقصف المصرى المركز والكثيف على مدى ستة عشر شهرا.

.. وبدأت عملية بناء جديدة اعتبرت "أكبر عمليات البناء فى إسرائيل"، وقد أشرف عليها اللواء "دان لنر" ومساعده "كالمان بيجين". فأضيفت إلى طبقة قضبان السكك الحديدية طبقة جديدة مكونة من ألواح من الحجارة وضعت فى داخل شبكات من المعدن. وقد اشترك فى العمل آلاف العمال اليهود،وآلاف العمال الدروز الذين أحضرتهم القوات الإسرائيلية من هضبة الجولان.

.. بعد ذلك أضاف "شارون" حوالى أربعمائة كيلو مترا من الطرق شقها بجانب القناة ومن بينها مائتان وخمسون كيلو مترا تم رصفها بالأسفلت،وفى منطقة المستنقعات فى قطاع الشمال شقت طريق وضع تحتها ستائر من البلاستيك حتى لا يتسرب الماء ـ إليها ويغطيها .

.. وقد أكثر" شارون " من شق طرق العرض، وأعدت فى مفترقات الطرق، طرق جانبية وعلى طول القناة شقت طرق أخرى طويلة سميت "طريق البطاريات"، وذلك لكى تتحرك بها بطاريات مدافع الجيش بسرعة، هذا وقد أنفق على إنشاء حصون خط بارليف ما يزيد على ملياري ليرة. " ويضاف إلى هذا الرقم الذى يذكره الإسرائيليون، أنهم استغلوا الرمال والصخور التى استخدمت فى التجهيزات من أرض

سيناء، كما أنهم سرقوا قضبان السكك الحديدية المصرية فى سيناء التى انتزعوها كلها واستخدموها أيضا فى البناء، بل إن هناك ما يؤكد أنهم استخدموا صخورا من مرتفعات الجولان السورية فى إقامة هذه التحصينات " البارليفية " ـ ولو قدرت كل هذه الموارد بأسعار متوسطة لتضاعفت تكاليف إقامتها ".

.. وفى هذا الخصوص قال " مناحم بيجن " :

.. إن المصريين لن يمروا عبر خط بارليف وهم لو فكروا فى ذلك فإنهم سيكون مصيرهم مثل مصير جيش فرعون .

.. وقال "إن الاستحكامات التى أقامتها إسرائيل على الضفة الشرقية للقناة والمسماة بخط بارليف، قد غيرت الموقف العسكرى كلية ونهائيا لصالح إسرائيل. لقد أصبح فى استطاعتنا أن نطلق النيران أو لا نطلقها وفقا لمشيئتنا نحن، مادام جنودنا فى حماية تحصينات خط بارليف الذى برهن على فعاليته تحت وطأة نيران المدفعية المصرية فى حرب الاستنزاف.

.. ويقول الجنرال " شارون " :

" إننا سوف نظل مرابطين على خطوطنا الدفاعية بالضفة الشرقية للقناة.. تلك الخطوط التى تعتبر أكثر الخطوط الدفاعية الملائمة لنا.. والتى نستطيع أن نحافظ عليها بأقل التضحيات الممكنة. وهى كذلك تعتبر العقبة الرئيسية أمام عبور جيش تقليدى بطئ الحركة وثقيل كالجيش المصرى ".

.. ويقول " توماس تشينهام " :

"إن عبورحفنة من رجال الجيش المصرى كقوة دورية مثلا إلى الضفة الشرقية بغرض بث الألغام والفرار بسرعة أمر ممكن.. أما إقامة المصريين لرأس جسر بقوة كبيرة فهذا أمر محال إنها خطوة ليس فى قدرة مصر تحقيقها أبدا.. إن الجيش المصرى على الرغم من آلاف القصفات من المدفعية الثقيلة والهاونات والصواريخ، فإنه قد يفشل فى تدمير حصن واحد من حصون خط بارليف".

.. ورجت الأرض رجا، وعبرت قوات مصر قناة السويس، واقتحمت خط بارليف.. واشتعلت جبهات القتال بنار جهنم.. وكان يوم التكفير، يوم عيد الكيبور، يوما مشؤما فى حياة إسرائيل، وارتفعت الأعلام المصرية فوق أرض سيناء، ولم يستطع طيران إسرائيل على كثافة موجاته أن يوقف تقدم قوات العبور المصرية التى اشتبكت فى معارك ضارية ضد الدبابات الإسرائيلية، وكانت الحرب التى لم يتوقعها أحد.. واحتلت أنباء القتال الصفحات الأولى فى جميع صحف العالم.

.. انفلات كامل شمل العالم من شرقه إلى غربه، ومن شماله إلى جنوبه، تغيرت معه كل الموازين، وتاهت كل المفاهيم.

.. وبدأ التاريخ يكتب صفحات جديدة.

.. ففى الأيام الخمسة الأولى من شهر أكتوبر كان كل شىء هادئا فى العالم.. فعلى الصعيد الدولى أعلن مستشار النمسا "كرايسكي" قراره المشير بإلغاء مركز تجميع اليهود السوفييت المهاجرين إلى إسرائيل. وتثور إسرائيل وتضغط أمريكا لإرغام كرايسكى على سحب قواته.

.. والرئيس السادات يرسل إسماعيل فهمى وزير الخارجية إلى فيينا لشكر كرايسكى ومناشدته الاحتفاظ بموقفه.

.. "وفيلى برانت" مستشار ألمانيا الغربية يعلن فى شيكاغو أن أسلوب حل أزمة الشرق الأوسط هو التفاوض المباشر بين مصر وإسرائيل، وزارة خارجيته تعود فتنفى ما نسب إليه وتعلن أن ألمانيا مازالت تعتبر قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ مناسبا لحل الأزمة.

.. والرئيس الأمريكى نيكسون يقرر بدء برنامج إجبارى لتوزيع وقود تدفئة المنازل بنظام الحصص، وذلك فى محاولة لتخفيف حدة آثار نقص الوقود خلال الشتاء.

.. والدولتان الكبيرتان تتقاربان وتتفقان.. ولا تباليان بما يعانيه العرب من ضيق ومرارة وتمزق، وتعلنان فى نوع من اللامبالاة بنا وبأمانينا عن ارتياحهما إلى الاسترخاء.. وهكذا بردت المواجهة بين الشرق والغرب.. وإسرائيل على الرغم من أنها ثارت لقرار كرايسكى، وأخذت تبذل المحاولات المستميتة لإرغامه على سحب قراره، فإنها راحت تقيم الاحتفالات بالعام العبرى الجديد، وتستعد ليوم التكفير "يوم كيبور ". والعلماء والمهندسون السوفييت يتدفقون على إسرائيل حتى بلغ عددهم ثمانمائة عالم خلال ثلاثة أشهر.. وساستها يعتقدون أن فرص السلام مازالت بعيدة".

.. ولا مراء أن الغرور الإسرائيلى قد بلغ مداه، ووصل إلى منتهاه فقد أصبحت إسرائيل برمتها تؤمن بوهم كبير اسمه " الجيش الذى لا يقهر".

.. وقهر الجيش المصرى، "الجيش الذى لا يقهر"،وخلال ست ساعات، وليس ستة أيام.

.. فقد حطم الجيش المصرى حاجز الخوف وعقدة التفوق الإسرائيلى، وكشفت أرض المعركة أن القوات المسلحة الإسرائيلية، وإن كانت قوات منظمة، ومسلحة، ومدربة، ولكنها تبقى رغم ميزتها قوات عادية غير أسطورية فهى تخطئ وتنسحب وتنهزم وتتكبد الخسائر الفادحة وتنسل راجعة القهقرى تاركة قتلاها وجرحاها على أرض المعركة، ويستسلم جنودها ويرفعون أيديهم بالتحية للقادة المصريين.

.. وقد أكدت نتائج تحقيق لجنة " أجرانات " أن القيادة الإسرائيلية ارتكبت أخطاء مأساوية بسبب غرورها وعماها الإستراتيجيى، ومحاولتها الخاطئة لتفصيل استراتيجية عسكرية تتلاءم مع أطماع السياسيين فيها.

.. وعرف الجنود الإسرائيليون مقدرة جنود العرب الذين صوروهم عقب حرب ١٩٦٧م حفاة الأقدام مطأطئى الرؤوس رافعين أيديهم بالاستسلام، وتأكدوا أنهم جنود منظمون ومقاتلون يهاجمون الدبابات ويسقطون الطائرات ويتشبثون بالأرض.. أرضهم وَيعْبرون الحواجز الطبيعية والمصنوعة بكفاءة عالية وينصبون الكمائن فى عمق مصرح العمليات ويمنعون الإمدادات والقوات الاحتياطية من الوصول إلى الخط الأول للقتال.

.. وفى دراسة كتبها المؤرخ الإسرائيلى "يعقوب تلمون" أستاذ التاريخ المعاصر فى الجامعة العبرية بعنوان " حساب النفس " قال فيها:

.. لقد وجدت الصهيونية نفسها فى حاجة إلى السلام، ذلك لأن صورة إسرائيل من النيل إلى الفرات أصبحت صورة زائفة.. وحتى لو تحققت هذه الصورة فلن يكون وجود إسرائيل آمنا لأن العنف والبربرية لابد أن تزداد فى المنطقة بأسرها، ولم تستطع إسرائيل النجاة منها.

.. لقد غيرت حرب أكتوبر الكثير من المفاهيم الخاطئة .

.. تم محو أسطورة جيش إسرائيل الذى لا يقهر ـ وكما ألمعنا ـ فقد ظلت إسرائيل تجاهد وهى تتساءل كيف أستيقظ من هذا الكابوس؟، وفى هذا الصدد يقول "شارون":

" إنه حقا لشيء مخيف ومرعب. لقد جعلتنا أصوات طلقات المدافع المصرية نفقد توازننا، وصرنا نترنح كالسكارى، ولم يكن باستطاعتنا عمل شيء لوقف هذا اللحن المصرى the international Insight team of the Sunday Times. Op. cit., p.١٩١. مشار إليه فى أطروحة دكتوراه (لم تنشر) إعداد الدكتورة "نوال عبد العزيز الصفتى".

.. وكذلك أصبحت الصور التى ترسخت قبلها، سواء بالنسبة لإسرائيل أو للعرب مجرد تاريخ مضى. ذلك أن حرب أكتوبر لم تغير الحقائق العسكرية والمفاهيم العلمية فى الشرق الأوسط فحسب بل أوضحت أيضا للمتحاربين من بنى إسرائيل أنهم لا يستطيعون تحقيق رغباتهم غير الواقعية بالقوة فليس من المتصور أن الإسرائيليين يستطيعون التمتع بالسلام والأمن طالما استمروا فى احتلال أراض عربية بالقوة.

.. وكانت الصورة الثانية التى غيرتها حرب أكتوبر أن صراع الشرق الأوسط ليس بالبساطة التى حاولت إسرائيل ترسيخها فى ذهن

العالم الخارجى. فقد اتضح أن هذا الصراع لا يمكن أن يتصاعد إلى حرب استنزاف واسعة النطاق فحسب، بل يمكن أيضا أن يورط القوى العظمى فى مواجهة غير مرغوب فيها. ومن هنا أدركت القوتان العظميان مدى زيف الصورة الاستاتيكية التى رسمتها إسرائيل للمنطقة، والتى أكدت من خلالها أنه لا يوجد هناك أدنى خوف من تورط القوى العظمى فى المنطقة. لكن حرب أكتوبر أكدت لهاتين القوتين ضرورة الإسراع فى إزالة الظروف التى أدت إلى أربع حروب فى الشرق الأوسط، إذا ما كانت القوتان تريدان استمرار وفاقهما وتحقيق السلام والأمن، ليس فقط للشرق الأوسط بل للعالم كله.

.. وكانت الصورة الثالثة التى غيرتها حرب أكتوبر أنها أوضحت قدرة العرب على التنسيق بين استخدام كل من السلاح العسكرى وسلاح البترول ضد أعدائهم. كما أنهم أوضحوا أنهم على استعداد للمزيد من تدعيمهم وذلك بهدف مضاعفة عزلة إسرائيل فى المجتمع الدولى.

.. وكانت الصورة الرابعة التى غيرتها حرب أكتوبر عن العرب أنهم استطاعوا عبور الفجوة التكنولوجية والنوعية بينهم وبين الإسرائيليين، وبذلك تمكنوا من إنزال خسائر ضخمة بهم وأثبتوا أن الإسرائيليين لا يتمتعون بالتفوق العسكرى الساحق الذى عودوا العالم الخارجى عليه. وعلى الرغم من أن العرب لا يمكنهم استخدام القوة بفاعلية كاملة لتحرير أراضيهم المحتلة، فإن قرار مصربشن حرب أخرى قد أصبح من الأمور التى لا بد من أخذها فى الحسبان عند النظر

إلى المستقبل خاصة إذا ما أجبرت الشعوب على اختيار أسلوب الحرب لكى تمحو الظلم الواقع عليها حتى ولوكان الأمل فى كسب الحرب غير كبير.

وقد محت هذه الحرب الصورة الإعلامية المزيفة التى سيطرت على الرأى العام العالمى من أن إسرائيل هى "داود"، والعرب هم "جوليات".. وقد بثت فى قلوب العرب شعورا جديدا بالقوة من خلال هذه الحرب التى بدأتها مصر وسوريا بهجمة مزدوجة فى وقت واحد كانت بمثابة الصدمة المتعددة الأبعاد لإسرائيل، وأطلقت موجة من التضامن فى العالم العربى، وبصفة خاصة كان عبور المصريين الناجح للقناة كما عبر "بيتر جبرلتش" سببا فى أن تفقد إسرائيل نفوذها الإعلامى الذى ظلت تدعمه منذ ١٩٦٧م.

.. وجاء سلاح البترول الذى قاده الملك فيصل بموقف مشكور منه وغير منكور يكتب له فى صفحات التاريخ وكذلك كان الشيخ زايد آل نهيان رئيس دولة الإمارات ناهيك عن الرؤساء العرب هوارى بومدين ومعمر القذافى وأمير الكويت.. جاء هذا السلاح كأحد وسائل الضغط غير المباشر على إسرائيل، وكضغط مباشر على الدول التى دأبت على السير وراءها.

.. وقدمت رؤية جديدة نافذة لغزى وحدة العمل العربى فى هذا الصراع المرير مع الصهيونية والإمبريالية الذى فرض على المنطقة فرضا، وأتت حرب أكتوبر بتأييد عالمى غير مسبوق للحق العربى.

.. كانت حربا ضروسا بين الحق والباطل أفاق الإسرائيليون وقد وجدوا أنفسهم فى بحر لجى إذ أحاط بهم الجنود المصريون وكذلك

السوريون إحاطة السوار بالمعصم بعزائم كأنها قضت من ظهر جبل أشم، واستشعرت الموت العاجل، وقد هبط على أم رؤوسهم من كل جوانب الأرض التى أصبحت موئلا للموتى والجرحى والأسرى واليائسين.

.. والذى لا مشاحة فيه أن سيناء التى كانت لمدة ست سنوات طوع بنانها أمست اليوم مقبرتها.

.. يقول أحد قادة إسرائيل إن سر انتصار مصر فى حرب أكتوبر أن أبناءها هبوا لتحرير أرضهم وهم يعرفون أنهم ذهبوا ولن يعودوا ؟!.

.. وهاهى ذى سيناء تستعيد بصرها الذى وإن كان قد كف، فإن بصيرتها كانت تصبر بعمق يفوق رؤية البصر، وأصبحت بعد حرب أكتوبر ترى كل شىء حولها.

.. وإذا كان الأدب هو فن الإبانة عما فى النفس والتعبير الدقيق عن مكنون الحس والتصوير الصادق لصور الحياة.. كما يقول " سانت بوف Sainte-Beuve هو الأسلوب الذى يصور الحقائق الإنسانية .

.. إذا كان ذلك كذلك. وهو كذلك فها هى ذى قصيدة من الأدب العبرى كتبها الشاعر "ناتان يوناتان Natan Yonatan " الذى تنبأ بنهاية إسرائيل بعد خمسين عاما. قال فيها:

بـــــلاد تـــأكـــل أبنـــاءهـــا
تـأكـــل زبـــــدة وعســلا وزرقة
أحيـــانـــا هـــى الأخـــرى تسلب
كبـــــــش الـفـــقـــيـــــر

بـــــلاد تســتحلـى تـــرابهـا
مـــالحـــة كـالبكـاء شـواطئهـــا
تـــلـك التـــى منحهـا أحبـاؤهـا
علـى قـــدر مـــا استطاعوا العطاء
كـل ربيـــع تعـــود إليها روعتهـا
كـى تغطـى جميع تجاعيد وجهها
ريـح الصـيف تعـانـف فـى النـور
حـــــزن حـجـــــارتـهـــا
ويعـــود الخـريـف بغيومه الثقيلة
ليغطـى بـالـرمـادى كـل بساتينها
والشـــتـــاء الـــذى يغلـق بالبكاء
جفـــون عيـــونهـا البـــاكيـــة

.. ولا جَرَمَ أن نذكر هذه الواقعة التى أتت على لسان اللواء "محمد رشاد وكيل المخابرات العامة الأسبق" تحت عنوان "مصر لم تزرع أشرف مروان فى إسرائيل" قال فيها:

.. تعتبر قضية أشرف مروان من أهم قضايا الجاسوسية فى القرن العشرين وتحتاج إلى وقفة تحليلية لتقييم أبعاد هذه القضية فى جميع المجالات وانعكاساتها السلبية على الموقف المصرى وخصوصًا حرب أكتوبر ١٩٧٣م، وصولا إلى استخلاص الدروس المستفادة منها،مع الوضع فى الاعتبار أن هذه القضية ومعالجتها لا تدخل فى إطار العمل

الصحفى أو الإعلامى حيث إنها تمس مؤسسات استراتيجية تتحكم فى الأمن القومى المصرى بمفهومه الواسع،ويتطلب الأمر الوصول إلى حقائق هذه القضية وأبعادها وظروفها بعيدًا عن الإثارة أو تسجيل المواقف،وأن ما دفعنى إلى الاقتراب من هذه القضية هو الاتصال المباشر بالمجال الذى تناولته هذه القضية فى هذه الفترة الزمنية. وانطلاقًا من هذا المجال فإن بداية هذه الواقعة قد وردت وبدون تحديد صفة العميل فى تقرير لجنة « أجرانات» التى شكلتها إسرائيل خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣م (٢٢ أكتوبر) لبحث أوجه القصور فى أداء القوات المسلحة الإسرائيلية،حيث ورد فى تقرير اللجنة الذى صدر فى ١٩٧٦م الحقائق التالية:

*إنه فى يوم ٤ أكتوبر ١٩٧٣م وقبل إجازة عيد الغفران فى إسرائيل،والتى تبدأ يوم ٦ أكتوبر،اجتمع مجلس الوزراء الإسرائيلى المصغر بقيادة رئيسة الوزراء جولدا مائير وبحضور وزير الدفاع والعميد إلياهو زعيرا مدير المخابرات الحربية الإسرائيلية لتقدير موقف نيات مصر العدوانية فى ظل الحشد المصرى على جبهة القناة تحت ساتر المناورة التدريبية للقوات المصرية، وتم فى هذا الاجتماع عرض جميع المعلومات المتوافرة لدى إسرائيل عن الحشود المصرية عن الجبهة ونوايا مصر العدوانية وكان تقدير موقف المخابرات الحربية الإسرائيلية بقيادة إلياهو زعيرا أنه بالرغم من كل هذه الحشود على جبهة القناة فإن مصر غير قادرة على القيام بأية عمليات عسكرية

مؤثرة ضد إسرائيل،وأنها لو تمت فإنها لن تتعدى عمليات هجومية محدودة وغير مؤثرة،وأن القوات الإسرائيلية على الجبهة قادرة على صد أية عمليات عسكرية هجومية من جانب مصر وأن هجومًا منظمًا من جانبها هى وسوريا ضد إسرائيل يعتبر احتمالا ضعيفًا وغير محتمل.

* وبعد الاستماع إلى قرار العميد "إلياهو زعيرا" انتهى الاجتماع وبدأ مجلس الوزراء الإسرائيلى والمسئولون الإسرائيليون فى الاستعداد لقضاء إجازة عيد الغفران خارج العاصمة إلا أنه فى سعت ٢٣٠٠ فى يوم ٥ أكتوبر ١٩٧٣م وصلت إلى جهاز المخابرات الإسرائيلية (الموساد) برقية من أحد عملائه المهمين للغاية والموثوق بمعلوماته بمستوى (A/١) وتفى هذه الدرجة بأن المصدر المذكور فى مركز دائرة اتخاذ القرارات الاستراتيجية ودرجة معلوماته سرى للغاية وتعنى رقم (١) بأن درجة الثقة فى معلوماته عالية للغاية ولا يرقى إليها الشك،وتضمنت البرقية أن مصر وسوريا ستقومان بالهجوم على إسرائيل فى وقت واحد فى آخر ضوء يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣م، سعت ١٨٠٠.

* وعلى ضوء ما سبق،فلقد تم استدعاء مجلس الوزراء الإسرائيلى للاجتماع برئاسة جولدا مائير وبدأ الاجتماع سعت ٤٠٠ فجر يوم ٦ أكتوبر واتخذ قرار التعبئة العامة الشاملة اعتبارًا من السادسة من صبيحة يوم ٦ أكتوبر،وبدأت مقدمات الخط الأول الاحتياط الوصول إلى مسارح العمليات فى سيناء والجولان بعد ٨ ساعات من إطلاق كود التعبئة سعت ١٤٠٠ وقت بدء هجوم القوات المصرية والسورية سعت ١٣٥٠ يوم ٦ أكتوبر.

* وبعد صدور تقرير لجنة أجرانات والذى تضمن الواقعة بدون تسمية وصفة العميل (أ/١) فلقد أشارت الاحتمالات فى ذلك الوقت أن يكون هذا التسرب قد تم من القيادة السورية والأردنية والذى أطلقت عليه المخابرات الإسرائيلية الاسم الكودى (بابل).

* وفى بداية عام ٢٠٠٢م، بدأت المصادر فى إثارة هذا الموضوع مرة أخرى بعد نشر الكاتب الأمريكى هوارد بلوم لمقالاته عن هذا الموضوع فى صحيفة الهيرالد تريبيون،والذى كشف فيها إلياهو زعيرا،مدير المخابرات الإسرائيلية فى ذلك الوقت عن عميل (بابل) أشرف مروان،وهو ما أثار مشكلة بين رئيس الموساد وإلياهو زعيرا،لكشفه أحد عملاء جهاز الموساد الإسرائيلى،وبدأت وسائل الإعلام فى تناول هذه القضية بأبعادها المختلفة وبصرف النظر عما ورد بوسائل الإعلام فإن الأمر يتطلب إلقاء الضوء على هذه القضية وصولا إلى الحقائق التى لا تقبل ولا تحتمل الجدل أو الاستنتاجات فى قضية من أهم قضايا التجسس فى القرن العشرين انطلاقا من الحقائق التالية:

* من باب الإنصاف وانطلاقا من الحقائق فإن المصادر قد تناولت روايتين فى هذا المجال،الأولى منها: أن المذكور أشرف مروان قد عرض التعاون مع المخابرات الإسرائيلية من خلال وسيط يتردد عليه للعلاج،والثانية أن المذكور قام بالاتصال مباشرة بالسفارة الإسرائيلية فى لندن وعرض التعاون مع جهاز المخابرات الإسرائيلية،وأيًا كان صدق أى منهما فإن النتيجة النهائية أن المذكور قدم نفسه للمخابرات الإسرائيلية وعرض التعاون معها وهذا هو لب وصلب الموضوع والقضية.

* وانطلاقا مما سبق فإن المذكور كان دافعه للتعاون مع المخابرات الإسرائيلية دافعًا ماديًا بحتًا والتى قدرتها المصادر الإسرائيلية بـ ٢٠ مليون دولار أمريكى.

* وبالإضافة إلى ما سبق فإن سالف الذكر قد حدد أيضًا مستوى اتصاله مع رئيس المخابرات الإسرائيلية (الموساد) مباشرة ضمانًا لأمنه وتحاشيًا لأية عمليات كشف من خلال وسيلة الاتصال باعتبارها أضعف حلقات العملية السرية،واستمر على هذا المنوال طوال فترة تشغيله وبدون أية استثناءات.

* إن المذكور بحكم موقعه الوظيفى داخل هدف يعتبر مجمعً للمعلومات ذات صفة السرى للغاية عن الأمن المصرى بمفهومه الواسع وفى فترة إعادة بناء وتسليح القوات المسلحة ومؤسسات الدولة الأخرى وخصوصًا العاملة فى مجال المعلومات عن إسرائيل عسكريًا وسياسيًا واقتصاديًا وداخليًا،وهو مكتب سكرتير السيد الرئيس للمعلومات والذى يعتبر هدفًا مغريًا لأى جهاز مخابرات ويتطلب المجازفة والدراسة لاختراقه.

* إنه من وجهة النظر الفنية والمهنية فإن الأمر يتطلب من جهاز المخابرات الإسرائيلى التأكد أولا من دافعه للتعاون ومدى الثقة فى هذا العرض من خلال عينة المعلومات المقدمة من العميل بالإضافة إلى الحصول على وسيلة السيطرة عليه منذ اللحظة الأولى ووضعه تحت الاختبار للتأكد من ولائه الكامل للموساد وبصفة مستمرة منذ عرض التعاون عليها فى أبريل ١٩٦٩م.

ثانيًا: واستكمالا لمرحلة التجنيد تبدأ أهم مرحلة للاستفادة من العميل بتشغيله لتغطية احتياجات المخابرات الإسرائيلية وتقييم إنتاجه بصفة مستمرة مع الوضع فى الاعتبار أن قيمة المعلومة ودرجة سريتها هما اللتان تحددان درجة الثقة فى العميل ومستواه المهنى فى هذا المجال، ومن الواضح أن العميل المذكور قد تجاوز فترة الاختبار وأصبح فى فترة وجيزة مصدر ثقة المخابرات الإسرائيلية من خلال المعلومات التى قدمها منذ عرض التعاون مع الجهاز وخصوصًا أنه قد تقلد المناصب التالية:

* العمل فى مكتب السيد الرئيس جمال عبد الناصر للمعلومات منذ ١٩٦٨م وحتى ١٣ مايو ١٩٧١م.

* عين سكرتير الرئيس أنور السادات للمعلومات منذ ١٥ مايو ١٩٧١ وحتى ١٩٧٤م.

* عين سكرتير الرئيس للاتصالات الخارجية ١٩٧٤.

* رئيس مجلس إدارة الهيئة العربية للتصنيع منذ ١٩٧٥ وحتى مارس ١٩٧٩.

* عين سفيرًا بالخارجية ١٩٨٧م إلا أنه لم يمارس الوظيفة.

.. وإذا ما انتقلنا إلى الصراع العربى - الإسرائيلى والمحاولات العربية لتحرير الأراضى المحتلة بعد نكسة ١٩٦٧م، وخصوصًا مصر لتحرير الأراضى المحتلة فى ظل جمود سياسى دولى لا يبشر بأية أمال لحل هذا الصراع، وتوافر أفضل الأوضاع الدفاعية والقتالية لإسرائيل على الجبهات العربية، الأمر الذى أدى إلى اللجوء للعمل العسكرى باعتباره

الحل الوحيد لكسر هذا الجمود وتحريك الموقف السياسى وكانت عمليات ١٩٧٣م ضد إسرائيل ضرورة ملحة لتحقيق ذلك بالتنسيق مع سوريا وبدأت عمليات تنظيم التعاون والتنسيق بين القيادتين المصرية والسورية سياسيًا وعسكريًا،وتم الاتفاق على تفصيلات الخطة ومرحلة الخداع الاستراتيجى وسعت سوريا لبدء الهجوم ومن هنا نشير إلى التالى:

* إن القيادة المسلحة المصرية طلبت أن تبدأ الحرب فى آخر ضوء يوم ٦ أكتوبر باعتباره من أفضل التوقيتات لإتاحة الظروف المناسبة لإنشاء الكبارى ليلا لانطلاق القوات المدرعة والمدفعية الثقيلة ووحدات الدفاع الجوى المصاحبة للتشكيلات،إلا أن القيادة السورية المسلحة طلبت أن تكون سعت س فى أول ضوء يوم ٦ أكتوبر لإتاحة الظروف للقوات المهاجمة للعمل طوال النهار لاحتلال الهضبة السورية.

* ووصولا لحل وسط بين التوقيتين،فلقد تم الاتفاق بين القيادتين فى آخر زيارة للفريق أول أحمد إسماعيل لسوريا قبل المعركة يوم ٣ أكتوبر ١٩٧٣م، وبموافقة الرئيس حافظ الأسد على أن يكون توقيت الهجوم سعت ١٤٠٠ يوم ٦ أكتوبر مع الاحتفاظ بسرية هذا التوقيت بينهما لتحقيق المفاجأة الاستراتيجية للعدو.

* وعلى ضوء ما سبق،وبرغم الجدل حول هذا الموضوع وللحكم على قيمته من الناحية العسكرية،فإن النتيجة النهائية وهى الأهم أن العملية (بابل) قد حققت لإسرائيل الإنذار بالهجوم المصرى – السورى وتعبئتها لقواتها اعتبارًا من سعت ٦٠٠ صباح يوم ٦ أكتوبر وأن القوات وصلت لمسارح العمليات منذ بدء الهجوم المصرى – السورى بعد أن

كانت هذه التعبئة مستبعدة وغير واردة فى ذهن القيادات الإسرائيلية فى اجتماع مجلس الوزراء الإسرائيلى المنعقد يوم ٤ أكتوبر ١٩٧٣م.

ثالثًا: ازدواجية عميل العملية (بابل) :

* إن ازدواجية العميل تعنى أنه يعمل مع جبهتين متضادتين فى وقت واحد وأحدهما يعلم حقيقة تعامله مع الأخرى مع الوضع فى الاعتبار أن تشغيل العميل المزدوج من أعقد وأصعب عمليات المخابرات ولا يلجأ إليها أى جهاز مخابرات إلا للضرورة القصوى لاعتبارات أمنية وفنية وإنسانية أهمها أن العميل المزدوج إنسان تتنازعه رغبات واتجاهات يحاول تحقيق معظمها لصالحه منهما طبقًا لدافعه الإنسانى للتعاون.

* وبالرغم مما سبق فلقد حسم بيان السيد سامى شرف، سكرتير الرئيس جمال عبد الناصر للمعلومات، هذا الموضوع ونفيه تكليف الملازم أول كيميائى محمد أشرف أبوالوفا مروان بأية مهمة خارج حدود الجمهورية العربية المتحدة منذ التحاقه ١٩٦٨م، بسكرتارية الرئيس جمال عبدالناصر للمعلومات وحتى يوم ١٣ مايو ١٩٧١م، بالإضافة إلى أنه لم يرصد أية معلومات متوافرة عن نشاطه حتى تم الكشف عن تفاصيل العملية (بابل) ٢٠٠٢م، جريدة الدستور بتاريخ ٢٠١٠/١٠/١٦م.

وعلى ضوء ما سبق فإننا نورد الحقائق التالية:

* إن عميل العملية (بابل) قد حقق لإسرائيل أهدافها الاستراتيجية من هذا التعاون وبدون تحفظ وكان كل ما يدور فى مصر كتابًا مفتوحًا للمخابرات الإسرائيلية فى جميع المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية والداخلية.

* إن الخداع الاستراتيجى لمصر والذى بدأ من أبريل ١٩٧٣م قد حقق لمصر عدم تعرض قواتها المسلحة لضربة إجهاضية من إسرائيل بالإضافة إلى حائط الصواريخ على الجبهة والذى يغطى المجال الجوى لها لمسافة ١٥كم شرق القناة.

* إن الإنذار بالهجوم من عميل العملية (بابل) يوم ٥ أكتوبر والذى ترتب عليه إعلان التعبئة فى إسرائيل اعتبارًا من يوم ٦ أكتوبر قد حقق لإسرائيل التوازن الدفاعى للنسق الثانى والاحتياطيات القريبة غرب المضايق اعتبارًا من قبل آخر ضوء يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣م.

* إن عميل العملية (بابل) لم يخدع إسرائيل بل إن "إلياهو زعيرا"،مدير المخابرات الحربية الإسرائيلية هو الذى خدع نفسه بتقديراته الخاطئة عن نيات وقدرات مصر الهجومية لإفراطه فى الثقة بنفسه والتى لولا الإنذار بالهجوم والبدء فى التعبئة لكانت إسرائيل قد تعرضت لكارثة عسكرية يصعب تداركها لأجيال قادمة.

* إن إصرار العميد "إلياهو زعيرا"، مدير المخابرات الحربية الإسرائيلية على موقفه الثابت بأن مصر غير قادرة على القيام بأية عمليات عسكرية مؤثرة ضد إسرائيل واستبعاد التنسيق مع سوريا قد حد من الاستفادة الكاملة من المعلومات الغزيرة لعميل العملية (بابل) والتى لم تتناول مقومات المقاتل المصرى الذى رفض الهزيمة منذ البداية،وأبى الاستمرار فيها فى حياة الخنادق المهينة وغير الآدمية والتى عندما أتيحت له فرصة الخروج من هذه الخنادق رفض

العودة إليها حتى ولو كلفه ذلك حياته. وبالإضافة إلى ما سبق ولتأكيد واقعة تجسس أشرف مروان لصالح إسرائيل من خلال المصادر المصرية المختلفة تعليقًا على هذه الواقعة وللرد على موضوعين رئيسيين هما: .. الموضوع الأول: هل كان أشرف مروان عميلًا مزدوجًا؟ نشير فى هذا المجال إلى إفادة السيد المرحوم الوزير أمين هويدى والذى كان مشرفًا على جهاز المخابرات العامة المصرية فى ذلك التوقيت،فى مقابلة مع إحدى القنوات الفضائية تعليقًا على هذا الموضوع بأنه لا يعلم شيئًا عن هذا الموضوع جملة وتفصيلًا، ومن ثم وبالإضافة إلى شهادة سامى شرف – سكرتير الرئيس جمال عبد الناصر فى ذلك التوقيت – فإن أشرف مروان يعتبر عميلًا لإسرائيل وليس عميلًا مزدوجًا. الموضوع الثانى: هل خدع أشرف مروان إسرائيل بإبلاغهم بأن الهجوم المصرى – السورى يوم ٦ أكتوبر وأن ما حدث كان يوم ٦ أكتوبر؟ نشير فى هذا المجال أيضًا بأن توقيت الهجوم كان فعلًا سعت ١٨٠٠ يوم ٦ أكتوبر حتى يوم ٣ أكتوبر حيث تم تغييره فى دمشق أثناء زيارة المرحوم الفريق أول أحمد إسماعيل لسوريا فى ذلك التاريخ إلى يوم ٦ أكتوبر بدلًا فى الوقت الذى كان فيه أشرف مروان فى لندن والثابت من المقابلة التى تمت مع المرحوم محمد نصير فى إحدى القنوات الفضائية وتعليقًا على هذا الموضوع بأنه استنجد بأشرف مروان،والذى كان موجودًا فى لندن يوم ٤ أكتوبر لمساعدته فى العودة إلى مصر من لندن حيث تم إبلاغه من شركة مصر للطيران بأن المجال الجوى المصرى

مغلقًا للطيران المدنى اعتبارًا من يوم ٦ أكتوبر (تم احتواء هذا الموقف فى حينه من القوات المسلحة وإبلاغ مكاتب مصر للطيران بأن المجال الجوى المصرى مفتوحًا لتلافى كشف توقيت الهجوم)،وهو ما يشير إلى أن أشرف مروان كان موجودًا فى لندن يوم ٥ أكتوبر ١٩٧٣م، والذى يتزامن أيضًا مع وصول البرقية المشار إليها سابقًا إلى جهاز المخابرات الإسرائيلية،والتى تشير إلى قيام مصر وسوريا بالهجوم على إسرائيل يوم ٦ أكتوبر.

.. وفى النهاية وتعليقًا على تصريح الرئيس السابق حسنى مبارك حول هذا الموضوع بأن أشرف مروان قد أدى خدمات جليلة لمصر لم يحن الوقت للكشف عنها فإننا نشير إلى التالى:

* إن هذا التصريح ليس دفاعا عن أشرف مروان بقدر ما هو دفاع عن نفسه،حيث إن أشرف مروان كان صديقًا حميمًا لعائلة مبارك وأسهم مع جمال مبارك فى شراء صفقة ديون مصر،كما أنه كان من ضمن المدعوين لحفل زفاف نجله جمال مبارك، ومن ثم لا يمكن أن يسمح الرئيس السابق حسنى مبارك للإعلام المصرى بالاستمرار فى ترديد أن صديق العائلة كان جاسوسًا إسرائيليًا على مصر لصالح إسرائيل.

.. إذن لولا "بابل" هذا لتغير وجه المعركة وسارت الأمور فى غير المنحنى الذى سارت فيه وليممت وجهها شطر نصر ساحق ماحق لمصر على إسرائيل وبغض النظر عن وجهة النظر هذه فانظر ماذا كتب "فيكتور سجلمان" الكاتب الإسرائيلى إذ قال بعد أن سكتت المدافع:

.. "لقد اختفت تماما أغانى الانتصار التى كانت ترددها إذاعة إسرائيل بعد حرب ١٩٦٧م (عن شرم الشيخ)، (القدس الذهبية) وحلت محلها اليوم (بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣م) أغنية تلاحق إسرائيليين ليل نهار من الإذاعة والتلفاز، وتقول كلمات هذه الأغنية :

.. " باسم الجنود الذين هبطوا والنيران مشتعلة فى أجسادهم

.. باسم.. و باسم.. وباسم

.. أعدك ياصغيرتى العزيزة أن هذه الحرب ستكون الأخيرة.. الأخيرة!!

.. ويعلق الكاتب المذكور ـ كما جاء ـ فى كتاب " الطوفان" للأستاذ "حمدى الكنيسى":

.. " كانت أغانى ٦٧ تعبر عن فرحة الحياة، ولذة النصر، أما اليوم ـ بعد حرب أكتوبر ـ فقد خارت قوى " الأبطال " ولم يسبق فى تاريخ إسرائيل القصير أن شعر الإسرائيليون بمثل هذه الشدة والحدة بالتعطش إلى السلام والهدوء وزوال التوتر. إن الشاغل الرئيسى لرجل الشارع الإسرائيلى يتركز الآن فى الانتهاء من هذه الأمور بسرعة، وفى إعادة الجنود المرابطين على الجبهة، ووضع حد لقائمة القتلى والمفقودين والجرحى، لكى يتسنى له أن يلتقط أنفاسه التى كادت تتوقف. وعندما يقول الجنرال ديان " لسوف نصبح عما قريب، أقوى بكثير مما كنا قبل الحرب " حينما يقول هذا يغضب الإسرائيليون أو يبتسمون باستخفاف.. لقد فقدوا الثقة بوزرائهم وأصبحوا يشكون فى جنرالاتهم السياسيين الذين أخذوا ـ من جانبهم ـ يتبادلون الاتهامات !! وهذا أحد الأدلة على أن صورة إسرائيل " كدولة كبرى تقف راسخة

ومستحكمة للغاية ".. هذه الصورة اختفت مع حرب أكتوبر، وبدون أن تخلف أية آثار ".

.. كانت "جولدا مائير" رئيسة وزراء إسرائيل آنذاك بمثابة الأم العجوز للإسرائيليين.

.. وقد اكتفوا بأن قالوا لها:

".. معذرة لا بقاء لك بعد ما فعله الطوفان بنا ".

.. انطوت "جولد مائير" على نفسها تتدثر بعزلتها.. واكتفت بتقديم قصة حياتها فى كتاب قالت فيه:

" لاشئ أقسى على نفسى من كتابة ما حدث فى أكتوبر ١٩٧٣م، فلم يكن حدثا عسكريا رهيبا فقط، وإنما كان مأساة عاشت وسوف تعيش معى حتى الموت".

.. وأردفت "جولدا" قائلة:

("إن صدمتنا لم تتمثل فقط فى الطريقة التى حاربونا بها ولكن لأن عددا من المعتقدات الأساسية التى آمنا بها قد انهارت أمامنا"، "فقط آمنا باستحالة وقوع حرب فى شهر أكتوبر، وأمنا بأننا سوف نتلقى إنذارا مبكرا لكل تحركاتهم قبل نشوب الحرب. وآمنا بقدرتنا التامة على منع المصريين من عبور قناة السويس ".. وقد انهار ذلك كله فجأة.. إن ما حدث شيء لا يمكن وصفه. ويكفى أن أقول إننى لم أستطع أن أبكى وكنت أمضى معظم الوقت فى مكتبى، وأحيانا أذهب إلى غرفة العمليات وكانت هناك اجتماعات متواصلة، وتليفونات من أمريكا.. وأخبار مروعة من الجبهة بينما كانت خسائرنا تمزق قلبى.. !!).

.. ثم ها هى ذى تقول فى محاضرة ألقتها فى تل أبيب :

" إن إسرائيل دولة صغيرة أكثر من اللازم، والشعب الذى يعيش فى إسرائيل صغير جدا. إننى أرى أن خطوات السلام التى تفرضها نتائج الحرب تفرض على كيان إسرائيل وشعبها عبئا ثقيلا".

.. وقد دفع هذا وزارة التعليم الإسرائيلية إلى أن تقوم بتوزيع كتيب صغير " دعت فيه المدرسين إلى تهيئة طلبتهم معنويا لتقبل حقيقة إن دولة إسرائيل أصغر بكثير من تلك التى اعتادوها".

.. وفى مقال للكاتب الإسرائيلى "أليا هو عميكام" بصحيفة "يديعوت أحرونوت" فى ١٩٧٤/٨/٩م:

"إن الانتصار العربى فى حرب أكتوبر قد فرض نتائجه حتى على العالم غير العربى.. فطيلة ست سنوات سمعنا من معلقينا من يقولون ـ وقد ارتسمت على وجوههم ابتسامة حكيمة حمقاء ـ "إن (قرون) إسرائيل انخفضت فى العالم لأن العالم لا يحب المنتصرين ولكنه يتعاطف مع المهزومين". هذا ما كان يقوله معلقونا الحكماء.. وعندما تحقق للعرب الانتصار العظيم فى أكتوبر ١٩٧٣ تبددت ادعاءات هؤلاء المعلقين وسقطت تقديراتهم السابقة إذ وجدنا أن دول أفريقيا قد سارت وراء عيدى أمين فى قطع علاقاتها مع الجانب المهزوم ـ جانبنا ـ كذلك فعلت دول أمريكا اللاتينية.

.. وهكذا لم تعد قرون المسكينة منخفضة فقط، بل إنها لم تعد قائمة على الإطلاق !! ".

.. أما دافيد أليعازر رئيس الأركان الإسرائيلى، وصاحب التهديد الشهير " بسحق عظام العرب فقد أعد بيانا ليذاع فى التلفاز الإسرائيلى فى يوم الإثنين الأسود كما أسمته إسرائيل ١٩٧٣/١٠/٨م قال فيه:

.. "خرج اليوم جيش الاحتياط إلى هجوم مضاد، ولكن علَّى أن أبلغكم بصدق أن هذا الهجوم فشل فشلا ذريعا، وأن قوات العدو فى البر والجو، قوات هائلة، حتى أجدنى مضطرا إلى الخوف من أن يحطموا عظامنا، إن أقصى ما نستطيع توقعه ـ فى الظروف الحالية ـ هو أن يكتفى المصريون بصدنا فى سيناء !! " .

.. أما بطل إسرائيل الجنرال "موشى ديان" فقد قال فى اليوم الرابع للقتال:

.. "لن أخفى عليكم أن قواتنا فى الجولان وفى قناة السويس فى حالة ذعر تام. ولم يعد لخط بارليف وجود، كما أن أجهزة إشعال مياه القناة صارت خرافة. وأصارحكم بأننى لا أتمنى أن أكون فى هذه اللحظات فى موقف رجال مدرعاتنا.. أما سلاحنا الجوى فقد تم تحييده وقد بلغت خسائرنا فيه ـ فى اليوم الأول فقط ـ ستين طائرة منها ٣٦ طائرة فانتوم".

.. كتب "جون بلوك" فى كتابه "الإعداد للحرب":

.." بعقلية السياسى المحنك، آثر السادات أن يخوض كثيرا من المواقف الصعبة قبل أن يرسل بقواته فى هجومها العاصف على الدفاعات الإسرائيلية لكى تسترد الثقة والكرامة العربية"

.. إن حرب أكتوبر لها أبطالها، لكن البطل الحقيقى هو الرجل الذى أعد المسرح لها ورتق كل شىء، الرجل الذى قرر بهدوء شديد ـ ماذا يجب عمله، ونفذ ما قرره فى وجه صعاب هائلة ومشاكل مريرة.. لقد تجاهل وتجاوز النقد الذى وجه إليه ـ حتى داخل مصر ـ بينما كان يتابع سياسته. وقد أظهر فى النهاية أنه قائد له قدرة على إعطاء القرار.

.. إن (السادات) هو "(هارى ترومان)" العرب، الذى تحققت عظمته، حين أعد لكل شىء عدته كأفضل ما يكون الإعداد".

.. أما "جيمس كالاهان" وزير خارجية بريطانيا فقد عبر عن إعجابه بالسادات فقال:

.. " إن أنور السادات كاسحة ألغام.. إنه يعرض نفسه لكل الخطورة، ولكنه فى النهاية يمهد الطريق أمام الجميع. تماما مثل كاسحة الألغام التى تقتحم المياه التى زرعها العدو بالألغام، لتمهد الطريق وتجعله آمنا أمام غيرها من البوارج والمدمرات وقوارب الطوربيد وغيرها. إن هذا الرجل.. يتصف بالشجاعة والحكمة والبصيرة فى آن واحد".

.. كان السادات قد يئس تماما من وعود الاتحاد السوفيتى له، كما أنهى إلى الأستاذ "أنيس منصور" فى كتابه "أوراق السادات" من إرسال الأسلحة التى طلبتها مصر منه للإعداد للمعركة مرات ومرات خلال مارس ١٩٧١م، مايو ١٩٧١م، أكتوبر ١٩٧١م فأملى على حافظ إبراهيم مستشاره للأمن القومى كما ذكر الأستاذ "موسى صبرى" فى كتابه حرب أكتوبر :

.. "اكتب ياحافظ كلمة سأمليها عليك.. ابتداء من هذه الليلة كل طرق التعامل مع الاتحاد السوفيتى موقوفة. تنهى خدمات الخبراء السوفيت. المبانى العسكرية تعتبر ملكا لمصر. الأسلحة الموجودة بها إما أن تباع لنا صباح ١٧ يوليو أو تسحب ابتداء من ١٧ يوليو، وبالنسبة لتنفيذ المعاهدة المصرية السوفيتية.. لابد أن تجرى مباحثات بين البلدين على أعلى مستوى.. وفى القاهرة ".

.. يذكر التاريخ العسكرى كيف اضطرت بعض الجيوش إلى عبور موانع مائية تقف بينها وبين هدفها، ولكن الصفحات الجديدة التى أضافها التاريخ تقول إن تلك الموانع متمثلة فى الأنهار والقنوات لم تصل فى خطورتها إلى ما وصلت إليه قناة السويس التى كان يتحتم على القوات المصرية عبورها.. فقد تميزت هذه القناة عن غيرها من الموانع المائية بعدة صفات فريدة جعلتها تمثل تحديا خطيرا للمخطط والمنفذ معا.

.. فجوانب القناة لا تنحدر بشكل تدريجى كما هو معروف بالنسبة للأنهار والقنوات العادية، وإنما تقف جوانبها بشكل رأسى تقريبا، وليت الأمر يتوقف عند هذا الحد، بل إن هذه الجوانب أو الشواطئ مكسوة بالدبش والأسمنت علاوة على ألواح وشرائح من الصلب على جانبى القاع لتقويتها ولتحول دون انهيار الجانبين، وهى بهذا الشكل تمنع نزول وصعود المركبات البرمائية إلا بعد تجهيزات هندسية مسبقة تتطلب أعمالا خاصة.

.. على حافتى القناة ينهض ساتران ترابيان هائلان يصل ارتفاعهما إلى ٢٠ مترا الساتر الذى أقامته القوات المصرية على الضفة الغربية، والذى يتحتم فتح ثغرات واسعة فيه قبل عبور القناة، ثم الساتر الذى أقامه الإسرائيليون على الضفة الشرقية، والذى يتحتم فتح ثغرات واسعة فيه بعد عبور القناة.

.. وحيث إن المرحلة الأولى ستبدأ قبل فتح هذه الثغرات، فإن المقاتلين المشاة سيكون عليهم تسلق الساتر الشاهق الذى يشبه فى ارتفاعه عمارة مكونة من أكثر من ثمانية طوابق.

.. عرض القناة الذى يتراوح بين ١٨٠، ٢٢٠ مترا.. لا يسمح للقوات بالمناورة والانتشار أثناء العبور بل إنه يتسبب فى الازدحام والكثافة مما يجعل القوات هدفا سهلا لضربات العدو.. ويوضح خطورة هذه الصفة ما نعرفه عن الأنهار التى عبرتها جيوش محاربة من قبل، وكيف كان عرضها يصل إلى ألفى مترا.

.. لا يوجد فى القناة مكان ضحل "مخاضة" كما يقول العسكريون، وأهمية هذه "المخاضة " تتمثل فى احتمال أن يضطر المقاتلون إلى الخوض فى المياه على أقدامهم، وهم يحملون أسلحتهم ومعداتهم. ليس هذا فقط بل إنها تعتبر من أعمق الموانع المائية إذ يصل عمقها إلى ١٨ مترا، كما أن سطح الماء ينخفض عن مستوى حافة الشواطئ بحوالى أربعة أمتار الأمر الذى يحتم تكسير وتسوية حافة الشاطئين لكى يتيسر رسو وسائل العبور المختلفة.

.. لم يحدث أن أقيم على طول شواطئ مانع مائى تحصينات دفاعية متصلة مثلما كان الحال بالنسبة لقناة السويس التى أقام الإسرائيليون على شاطئها الشرقى خط بارليف، بالإضافة إلى حقول الألغام الكثيفة جدا التى بثها العدو على الحافة مباشرة، ثم كانت هناك مباشرة، ثم كانت هناك مواسير النابالم التى أعدها الإسرائيليون لتتدفق منها النيران بكميات هائلة تكفى لتحويل القناة كلها إلى قطعة من الجحيم يحول من يقترب منها إلى رماد.

.. التيار المائى فى قناة السويس متغير السرعة من مكان لآخر بل من ساعة إلى أخرى ـ وهذا ما يضيف إلى مشكلة تثبيت رؤوس كبارى العبور.

.. نظرا لأن القناة تصل بين البحر الأبيض والبحر الأحمر، فإن المد والجزر فيها يمثلان مشكلة أخرى إذ يتغير مستوى مياه القناة ٤ مرات خلال اليوم الواحد، ويبلغ فارق المنسوب بين أعلى مد وأدنى جزر حوالى ٦٠ ـ سنتيمترا فى الشمال ويتزايد إلى مترين قرب السويس.

.. تلك هى أبرز الصفات التى تجعل من قناة السويس مانعا مائيا فريدا فى صعوبته وقسوته. ويكفى أن نتوقف أمام القائد الأمريكى البحرى هو الأميرال " ماكولى " حين سأله ضابط مهندس مصرى قائلا:

.. "لو كلف سلاح المهندسين الأمريكى بعبور القناة من الغرب إلى الشرق فكم من الزمن يستغرق ذلك العبور فى عملية حربية ؟"

.. وأجاب الأدميرال الأمريكى على الفور وبلا تردد:

.. "إن ذلك يحتاج إلى ٤٨ ساعة على الأقل".

.. وكان الإسرائيليون قد أقاموا هذا الساتر المانع الترابى العملاق على طول الضفة الشرقية لقناة السويس، وظلوا يزيدون من ارتفاعه حتى وصل إلى ٢٠ مترا زرعوها بحقول الألغام البالغة الكثافة وأنشئ فوق قمته المترامية الأطراف مرابض للدبابات وللعربات المدرعة.. ولو قمنا بعملية حسابية بسيطة لوجدنا أن خط المواجهة الذى يصل إلى ١٧٠ كم يحتوى على ١٣٦٠ مربضا للدبابات والمدرعات.

.. لكان كل هذا كفيلا بوأد عملية العبور فى مهدها.. هذا ناهيك عن السلاح السرى الخطير، فقد كان يخرج من كل نقطة حصينة من نقاط خط بارليف مواسير للمازوت باتجاه مجرى المياه، بمكنتها أن تقيم فى دقائق سدا من النيران واللهب أمام المهاجمين. فضلا عن الأنابيب المملوءة من النابالم والزيوت لتكوين طبقة من النيران فوق سطح المياه تنتهى بفتحات تحت الماء على مسافات متقاربة قادرة على ضخ ٢٠٠ طن من هذه المواد النابالمية الزيتية الكيروسونية، وكانت هذه المواد الملتهبة من القوة والبشاعة حتى إنها فى مكنتها تحويل القناة إلى قطعة من جهنم حتى إنها تشوى الأسماك مهما هربت من القاع وتلفح حرارتها أى شخص يبعد عنها بمسافة ٢٠٠ متر.

.. ولم تكن إسرائيل هى التى ابتكرت هذا المانع النارى إذ إن فكرة إشعال النار فوق الموانع المائية ترجع إلى عام ١٩٤٠م، وكان صاحبها ضابطا إنجليزيا يعمل فى المخابرات، ويدعى "جون بيكر هوايت"

حين لاحظ وجود أنابيب بها ثقوب متصلة بخزانات وقود عند خليج سانت مرجريت بالقرب من دوفر حيث تقف القوات الإنجليزية تأهبا لصد الغزو الألمانى.. فأخذ يفكر فى إمكانية استغلال هذه الأنابيب والخزانات لإشعال سطح القناة. ونظرا للإمكانيات المحدودة فى تلك السنة، فإن العمل اقتصر على نموذج واحد تقريبا، لاستغلاله فى حرب نفسية ضد الألمان. وقد نجحت هذه الحرب فعلا فى تحقيق هدفها.

.. وقد عرف التاريخ العسكرى الخطوط الدفاعية الحصينة قبل أن ينضم إليها خط بارليف الإسرائيلى.

.. فقبيل نشوب الحرب العالمية الأولى أنشأت فرنسا خطا دفاعيا حصينا أطلق عليه "فردون"، وقد قهر الجيش الألمانى بقيادة الماريشال " فولكنهاين " ـ هذا الخط فى ٢١ فبراير ١٩١٦م معلنا أنه بذلك قد حطم الكبرياء الفرنسية ودمر معنويات الفرنسيين.

.. وبعد أقل من عشرة أعوام من الحرب العالمية الأولى أنشأت فرنسا خطها الدفاعى الثانى مستفيدة فى إنشائه من تجربة خط " فردون "، وقد سمى هذا الخط باسم وزير الدفاع الفرنسى الذى أشرف بنفسه على بنائه، وهو " اندرية ماجينو " على تفادى اقتحامه وآثر أن يقوم بتطويقه فقط والالتفاف من " سيدان " والاندفاع بمدرعاته فى اتجاه نهر الميز.

.. عرف التاريخ إذن خط "فردون"، وخط "ماجينو"، وخط "جينسوتا"، وخط "سيجفريد".. وغيرها من الخطوط الدفاعية الحصينة، لكن خط بارليف الإسرائيلى جاء لتظهر كل تلك الخطوط

أقزاما بجانبه. فلقد استفاد الإسرائيليون من كل التجارب التى ارتبطت بتلك الخطوط الحصينة، فنقلوا مزاياها وأضافوا إليها، فى الوقت الذى تلافوا فيه سلبياتها وعيوبها , ليس هذا فقط بل إنهم استفادوا من تجربة حرب الاستنزاف التى تم فيها تدمير ثلثى الخط الأول، فأعادوا بناءه، ثم عادوا فأضافوا إليه المزيد والجديد وكأنهم بذلك قد بنوه وشيدوه على ثلاث مراحل كاملة. هى المرحلة منذ انتهاء حرب يونية ٦٧، ثم المرحلة التى بدأت مع حرب الإستنزاف ـ بعد أن وقع القصف المدفعى المصرى العنيف فى سنة ١٩٦٨م واستمرت هذه المرحلة حتى نهاية حرب الاستنزاف فى أغسطس ١٩٧٠م، وبدأت المرحلة الثالثة بمجرد إعلان وقف إطلاق النار وتوقف حرب الاستنزاف ـ ويعترف الإسرائيليون بأن العمل فى هذه المرحلة كان سباقا مع الزمن. راجع كتاب (الطوفان) للأستاذ "حمدى الكنيسى"

.. فى كتاب " ذئب فى قرص الشمس" يقول كاتبه الأستاذ محمد عبد المنعم:

" كان النقيب إيهاب الذى كان يربض على أرض وعرة أمضى ثلاثة أيام كاملة بها دون ماء أو طعام.. يقول لزملائه : " إننى جئت هذه المنطقة أكثر من مرة، وتعلمت وقرأت الكثير جدا عن طبيعة الذئب وأسلوب حياته.. عرفت أن هناك أكثر من أربعين فصيلة من الذئاب.. عرفت أن معظم هذه الفصائل تعيش وحيدة بمفردها.. وعرفت أن طول الذئب يتراوح ما بين ١٢٧ إلى ١٦٤ سنتيمترا ويصل ارتفاعه عن سطح الأرض ٦٥ إلى ٩٠

سم بينما يتراوح وزنه من ١٨ إلى ٨٠ كيلو جراما.. عرفت أيضا أن هناك من فصائل الذئاب ما يعيش فى قطعان يمكن أن يصل حجمها إلى ستة وثلاثين ذئبا، وأن كل قطيع يسيطر على قطعة من البرارى تصل إلى ١٣ ألف كيلومتر مربع.. عرفت وقرأت كل شىء عن حياة الذئاب.. ولكنه لم يكن يهتم إلا بذئب واحد.. لونه بنى غامق يختلف عن باقى ذئاب الصحارى التى يميل لونها إلى الأصفر الذى هو نفس لون البيئة التى يعيش فيها.. وكان من هذه الفصيلة (المتوحدة) بمعنى أنه كان يعيش بمفرده يصول ويجول وحيدا فى هذه الأراضى المترامية.. أراض لا يملكها إنسان.

.. ومن المعلومات الجديدة التى توصل إليها "إيهاب" وبالمجابهة ونزول الميدان يتربع على عرشه هذا الذئب المفترس.. بهذا الأسلوب تلاشى الخوف من أعماق النقيب إيهاب، فقد أصبح "يعرف" كل شىء استعد لكل الاحتمالات.. حتى لو نجا الذئب من "البندقية" و "السنجة" فقد كان صاحبنا يحمل معه مشعلا يستطيع فى لحظات أن يشعل فيه النيران التى تلقى الرعب فى أى نوع من الذئاب.

.. وفى الساعة الثانية من بعد ظهر هذا اليوم السادس من أكتوبر، وفى الوقت الذى كان فيه الجنود على طول جبهة القناة ينفخون بالهواء قوارب " الدنجى " المطاطية التى سيعبرون بها قناة السويس بعد أن صدرت إليهم أخيرا الأوامر بالهجوم والالتحام.. فى هذا الوقت الذى كانت فيه الجبهة بأكملها تنبض شهيقا وزفيرا مع آلاف المنافيخ التى تنفخ آلاف القوارب المطاطية.. مصدرة صوتا رتيبا متناغما.. فى نفس هذا الوقت كانت طائرات القتال فى جميع المطارات والقواعد الجوية

قد أدارت محركاتها.. وبعد لحظات انطلقت تلك الطائرات لتنقض على أهداف حددت لها بعناية شرقى قناة السويس، وبينما كانت تقطع هذه الرحلة من الغرب إلى الشرق كانت طلقات المدافع المحتشدة على طول الجبهة تقطع نفس الرحلة.. وكان جنود المشاة يجدفون بقواربهم فى نفس الاتجاه.. وكذلك الصاعقة والمهندسون والمدرعات.. الجميع اتحدوا كما لو كانوا رجلا واحدا عملاقا يخطو الخطوة التاريخية الجريئة من الغرب إلى الشرق.. إلى خط بارليف.. إلى سيناء.. إلى الشمس المشرقة، لم تكن هذه الحرب هى حرب رجل واحد، أو تشكيل أو سلاح معين.. إنما هى حرب شاملة بكل الأسلحة وكل الرجال تلاحموا جميعا فى سيمفونية رائعة المحصلة النهائية لما يمكن أن يبذله شعب بأسره.

.. فى الساعة الثانية ظهرا بمنطقة "الشيخ سلامة" كان النقيب إيهاب يدير جهاز الترانزستور مستمعًا إلى إذاعة القاهرة التى كانت هى سبيله الوحيد للاتصال بالعالم الخارجى، فيما وراء هذه المنطقة المهجورة التى لا يسكنها أحد.. وفجأة وبدون أى مقدمات أذاع راديو القاهرة (البيان الأول) للقيادة العامة للقوات المسلحة، ثم بعد دقائق البيان الثانى الذى أكد أن قواتنا المسلحة بكامل إمكانياتها تقتحم الآن بالقوة العسكرية جبهة قناة السويس التى تمتد حوالى ثلاثمائة كيلو متر.

.. أيقن إيهاب أن حرب التحرير قد بدأت أخيرا، وأنه رغم كل الظروف خرج من مصر قائد استطاع رغم أنف الجميع أن يتخذ القرار المهيب بالهجوم.. أول قرار بالهجوم على إسرائيل فى تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى.. وأدرك إيهاب أنه رغم كل الظروف أيضا خرج

أبناء مصر من خنادق كالقبور عاشوا فيها كالموتى ست سنوات كاملة.. ومع ذلك انطلقوا بكل قوة الحياة لتحرير أرضهم.. ودفع تيار الحياة دفعا بجسد مصر الخالدة.

.. قفز إيهاب إلى السيارة الجيب بعد أن جمع كل حاجاته وقاد السيارة مسرعا فى طريق العودة إلى وحدته.. وبعد لحظات، وبعد أن نسى كل شئ عن الحلم والكابوس الذى جاء من أجله هنا فى هذا المكان.. بعد لحظات معدودة إذا به يرى الذئب القاتل أخيرا يتجسد أمامه فوق تبة منخفضة على بعد مائة متر تقريبا.

.. يا إلهى لقد ظل يبحث عنه سنوات وأياما لم يظهر فيها ولو مرة واحدة.. وهاهو ذا يقف غبيا، بشعا، وحقيقة جافة مجردة، كما لو كان يريد أن يمنع صاحبنا من أداء واجبه الأول فى الحياة.

.. توقف إيهاب بالسيارة وأطفأ المحرك.. ومازال الذئب يقف متحديا.. بهدوء شديد أخرج بندقيته، ثم بدأ ينفذ خطوات مدروسة سبق أن فكر فيها أكثر من ألف مرة " حسنا أيها الذئب الخبيث إنك تتقدم عندما تشعر أن الذى أمامك طريح الأرض لا يتحرك. نعم إنك تتقدم الآن بخطى بطيئة حثيثة واعية.. وسأظل أنا لا أتحرك كما لو كنت جثة هامدة.. حسنا إنك اقتربت الآن أكثر، وأدركت أننى لا أتحرك نعم لقد بدأت تسرع خطاك قليلا... لقد سال لعابك.. لقد احتوى كيانك البائس كل الشراسة والوحشية.. لقد أصبحت على بعد أمتار منى أيها الغبى ".

.. وهنا تحرك إيهاب الذى كان يضغط طوال الوقت بسبابته على

زناد البندقية، وأطلق ستا وثلاثين طلقة على رأس الذئب الذى سقط صريعا دون حركة واحدة.. أخرج إيهاب خزينة أخرى، فى رأس وجسد الذئب الملقى تحت أقدامه. وبعد نفوقه جثة هامدة.!

.. وهكذا قتل جنود مصر جميع ذئاب إسرائيل.!

.. وتحطمت حصون إسرائيل.. "حصن كتوفا" فقد قتل قائده، وسقط ستة من أفراده جرحى.. و"حصن "أوركل"" الواقع فى الطرف الشمالى للقناة الذى نزل الجندى المصرى إلى داخله وسحب منه جنود إسرائيل الذين كانوا يختبئون داخله خائفين مذعورين ويرتعدون من هول الموقف وبدأ يسحبهم بالقوة واحدا إثر واحد، وذلك بعد أن ولى الكثير من جنود إسرائيل هاربين وهم فى حالة من الهيستريا العنيفة.. وكذلك حصن " أورك ٣" الذى رفع جنوده علما أبيض فوقه طالبين تسليم أنفسهم.. فضلا عن حصن "بودابست" الذى اتصل قائده بضابط العمليات يقول له "إننى متنازل عن المساعدة الجوية". إن طائراتنا الفانتوم والميراج التى جاءت لنجدة الحصن تتساقط أمامنا كالعصافير. إننى متنازل عن المساعدة الجوية فالخسائر فى الطائرات فادحة. إن جميع الطائرات التى تصل تسقط بالصواريخ المصرية. تسقط كلها. كلها.. وجاء سقوط "حصن لسان بورتوفيق" مدويا فلقد أحضر المصريون رجال الصحافة والإذاعة والتلفاز المصريين والأجانب ليشهدوا استسلام الحصن.. وكذلك استسلم حصن "بوركان".. أما حصن "ميلانو" فقد انسحب ضباطه وجنوده فارين فى الصحراء، وحينما اكتشفوا وجود كمائن من المشاة المصريين فى طريقهم اختبئوا بين الأعشاب البرية فى منطقة المستنقعات المالحة.

.. وبينما كانت كتيبة مدرعات إسرائيلية تحاول أن تهرب من كمين مصرى قامت بحصد هذه المنطقة "العشبية" بالنيران على افتراض وجود كمين آخر من قوات الكوماندوز المصريين.. وهكذا فإن هذه القوة التى كانت قد نجحت فى الفرار من جهنم المصرية .

.. ويقول الملازم الإسرائيلى "مفتال" الذى كان واحدا من الأسرى الذين وقعوا فى أيد القوات المصرية :

.. " كنا نتقدم بدباباتنا متجهين بسرعة نحو الفردان وقبل أن نصل بثلاثة كيلومترات.. رأيت بقعا تقفز من الحفر ومن وراء التلال. كانوا رجالا يتحركون وبعضهم كانوا يحملون أشياء تشبه الصناديق السوداء.. ولم أعرف فى البداية ماذا يعنى هذا ؟!!

.. ويردف قائلا: " لقد جمعنا المصريين أسرى كالثمار المعطوبة، وقد اضطر بعضهم إلى رفع خرائط الحرب بأيديهم إلى أعلى طالبين الاستسلام لأنه لم يجدوا غيرها ليرفعوها"

.. وقد كانت هذه الخرائط غنيمة رائعة كشفت جزءا من خطط العدو. أما الجنود فقد تم نقلهم على الفور إلى مركز تجميع الأسرى الإسرائيليين فى الخلف بالقرب من الضفة الشرقية للقناة.

.. وهكذا نجح السادات فى إعداد الجيش المصرى الذى قاده لتحقيق نصر أكتوبر المؤزر[1].

❑❑❑

(١) راجع "حمدى الكنيسى" المرجع السابق.